

Adopting the narrative imagination for ideological reference

Dr. Zahra khales ¹

¹: Abderrahmane Mira University of Bejaia, Algeria, zahra.khales@univ-bejaia.dz

Received:28/05/2024, Published: 15/12/2024

-Abstract:

The novel is a literary genre capable of monitoring social and political transformations, and the visions in it differ, as well as the voices and ideologies. It has every ability to overcome what is in some way silent about the representations of both the intellectual and the ideological conflict and its manifestations. We find the novelist presenting to us an image that somewhat reflects his reality, and the novel often deals with the intellectual. As a struggle awareness that stems from the feeling of injustice imposed and practiced on the citizen by the prevailing regimes, this culture is transformed into a means that seeks change. The fictional text is no longer a tool for entertainment and escaping from the truth and from the current crisis, but rather it has become an act of awareness and exposure of what is hidden behind the curtain of the system.

It is known that any society, whatever it may be, is not devoid of variation and disparity among its members, taking different forms and images at the level of interest, orientation and thought, which ultimately constitute what is known as societal spectra, and within the latter emerges what has been called: "the elite of intellectuals." These Those to whom thought, culture, and awareness are attributed are a distinct and active social group, and by virtue of the similarity of their role and similarity of their status, they are known for their moderate position, if they tend towards the truth, and from here they must not fall under the influence of any sect, but considering the intellectual as a human being, he finds himself adopting a set of ideas. And the opinions that he believes in and then defends, and this means that he fell into the net of ideology. From here, the following question was posed: Do novelists produce ideology or are they a product of it?

Keywords: imagination, ideology, thought, reference, novel, conflict.

تبني التخيل الروائي للمرجعية الإيديولوجية

د. زهرة خالص ¹

¹: جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية، الجزائر، zahra.khales@univ-bejaia.dz

-الملخص:

الرواية جنس أدبي قادر على رصد التحولات الاجتماعية والسياسية، تعددت فيها الشخصيات من رئيسية إلى ثانوية وتختلف الرؤى فيها وكذا الأصوات والإيديولوجيات، فهي تملك كل القدرة على تجاوز المسكوت عنه بصورة ما عن تمثيلات كل من المثقف والصراع الإيديولوجي وتجلياته، فنجد الروائي يقدم لنا صورة تعكس نوعا ما واقعه وكثيراً ما تتناول الرواية المثقف بوصفه ذات وعي نضالي منبعه الإحساس بالظلم المسلط والممارس على المواطن من طرف الأنظمة السائدة، فتتحول بهذا الثقافة إلى وسيلة تسعى إلى التغيير ولم يعد النص الروائي أداة للترفيه والهروب من الحقيقة ومن أزمة الراهن، بل أصبح كفعل توعية وفضح لما هو خفي وراء ستار النظام.

ومن المعلوم أن أي مجتمع مهما كان، فهو لا يخلو من التباين والتفاوت بين أفرادها، يأخذ أشكالاً وصوراً مختلفة على مستوى الاهتمام والتوجه والفكر الذي يشكل في نهاية المطاف ما يعرف بالأطراف المجتمعية، وضمن هذه الأخيرة يبرز ما أطلق عليه بـ "نخبة المثقفين" هؤلاء الذين ينسب إليهم الفكر والثقافة والوعي فهم فئة اجتماعية متميزة وفاعلة وبحكم تشابه دورهم وتمائل وضعهم، يمثلون فئة تتعالى على الأفراد الطبيعيين، عرفوا بموقعهم المعتدل فإن مالوا يميلون إلى الحق، ومن هنا وجب عليهم أن لا يقعوا تحت تأثير أي طائفة، لكن

باعتبار المثقف إنسان، فهو يجد نفسه يتبنى جملة من الأفكار والآراء التي يؤمن بها ثم يدافع عنها، وهذا يعني أنه وقع في شباك الإيديولوجيا، فانطلاقاً من هنا طرح سؤال كتالي: هل ينتج الروائيون الإيديولوجيا أم هم نتاج لها؟

- الكلمات المفتاحية:

التخييل، الإيديولوجيا، الفكر، المرجعية، الرواية، الصراع.

مقدمة:

تعتبر الإيديولوجيا *Idiologie* من أكثر المصطلحات والمفاهيم ذيوغاً وانتشاراً في الساحة الفكرية والأدبية، وهو موضوع تنقاسمه بالبحث عدّة حقول معرفية مثل السوسولوجيا، النقد الأدبي، الفلسفة... وغيرها ويبقى هذا المفهوم من أكثر المفاهيم المستعصية التي يتعذر تحديد معناها في سياق واحد بل تعدد تعاريفها، إذ كل باحث ودارس برأيه ووجهة نظر خاصة به.

نجد أنه من الضروري أن نقدم بعض الدلالات عن هذا المصطلح لأنه من غير المعقول أن نتحدث في هذا البحث عن الصراع الإيديولوجي دون الوقوف عند أهم مفاهيم الإيديولوجية وتطور دلالاتها انطلاقاً من البدايات الأولى، ولا نريد في هذا السياق الإدعاء أننا سنقدم آراء وتعريف لم يسبق لها أو تأتي بأشياء من اختراعنا، وإنما سنعمد إلى التقاط ما يخدم مجال بحثنا كي لا نكرر ما لجأ إليه السابقون من الباحثين والدارسين، وبناء على ذلك سنقف في هذا المبحث على السؤال: ما هي الإيديولوجيا؟

1- في المفهوم الاصطلاحي:

إنّ الحديث عن المفهوم اللغوي للإيديولوجيا يقودنا حتماً إلى إدراج حديث آخر حول المدلول الاصطلاحي لهذه الكلمة التي تعددت مشاربها ومياديينها، إذ نراها كثيرة الاستعمال والارتداد والتفسير من قبل الدارسين، الفلاسفة والأدباء، وعلى الرغم من كثافة استعمالها إلا أنّها ظلت غريبة وغامضة لا تستقر في حال واحدة بل تفوت ذلك، فنجدها في المدلول الفلسفي والاجتماعي والفكري وحتى الأدبي، تحمل نوعاً من التعقيد ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: ما المقصود بالإيديولوجيا اصطلاحاً؟

من المعلوم أن أصل كلمة إيديولوجيا غير عربي، بل هي ذات أصول غربية بحته ولا توجد في اللغة العربية كلمة مرادفة لها أو لمعناها بدقة وهذا لا يعني أننا ننكر اجتهاد بعض الدارسين العرب محاولين تعريبها ووضعها ضمن قوالب صرفية عربية، ونظراً لهذا الطرح سوف نقوم بتبيان أصلها الغربي أولاً ثم العربي.

2- مصطلح الإيديولوجيا في الفكر الغربي:

الإيديولوجيا مصطلح حديث، يعود إلى الثورة الفرنسية وإلى الفكر السياسي الذي عاصرها، والترجمة الحرفية المناسبة له والتي تفي بالغرض فيما يتعلق بمعناه هي "علم الأفكار"، فإن الإيديولوجية مصطلح حديث نسبياً ابتكره في مايو 1796 لأول مرة المفكر الفرنسي أنطوان ديسترت دوتراسي (Antoine Destut Detracy/1754-1836)¹ وقد أراد هذا الأخير ومن كان سبباً في وضع هذا المصطلح التأسيس لعلم جديد يعنى بدراسة الأفكار، مثله مثل العلوم الطبيعية والتطبيقية الأخرى، و«كان يهدف إلى تعيين علم الظواهر العقلية، الذي ارتأى أن نشوءه أصبح لازماً»²، إلى جانب الفلسفة المادية والحسية، وبهذا يكون قد أقدم على عمل ثوري في مجال الفكر تماشياً مع ما كان سائداً في تلك الفترة، محاولاً التفريق بين المضمون الجديد على الساحة ككل وما يعرف باسم الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة*، ومن هنا

¹ - ينظر: حسين علي، "العلم والإيديولوجيا"، ص 101.

² - سعيد شبار، "النخبة والأيدولوجيا والحداثة"، ص 39.

* الميتافيزيقا أو الماورائيات أو ما وراء الطبيعة: هو فرع من فروع الفلسفة يدرس جوهر الأشياء، يشمل ذلك أسئلة الوجود والصورورة والكينونة والواقع وهي أكثر الأطروحات الفلسفية شمولاً واتساعاً، وأكثر أسئلتها عمقا هو السؤال (لماذا كان وجود الموجودات بدلا من

يظهر أن اهتمام "دوتراسي" بالتحليل العلمي للإيديولوجيا يرمي إلى تخليصها من أنواع الخيال والميتافيزيقا من جهة واهتمامه وتبسيط الأفكار الحركية في واقعها المشخص من جهة أخرى.

ضف إلى ذلك أنه أشارت بعض المعاجم ومنها معجم أكسفورد البريطاني إلى أن "دوتراسي"، لمَّح لهذا اللفظ أمام المجلس الوطني بفرنسا سنة 1896م، إذ أطلق آنذاك كلمة إيديولوجيا كبديل للفلسفة العقلية، ويعرف مصطلح الإيديولوجيا قائلا: «هي علم الأفكار والآراء أو هي ذلك الجزء من الفلسفة أو علم النفس الذي يبحث في أصل وطبيعة الآراء والمعتقدات»³، فهو يسمي هذا العلم المقترح إيديولوجيا إذا نظر إلى محتواه ونحوها عامًا إذا نظر إلى وسيلته ومنطقا إذا نظر إلى هدفه.

لقد عرف مفهوم الإيديولوجية تطورًا كبيرًا، حيث يمكن التمييز بين ثلاث مراحل تاريخية لهذا المفهوم أولاً: توظيف فلاسفة عصر الأنوار، ثانياً: توظيف الفلسفة الألمانية، وثالثاً: التوظيف الماركسي، وهذه المرحلة هي من منح الدرجة الأعلى للإيديولوجيا على المستوى العلمي، حيث أنه لم يتجلى هذا المفهوم بوضوح إلا بعد مجيء "كارل ماركس" (Carl Marx/1818-1883) الذي يعرفها بأنها: النتاج الفكري للطبقة الاجتماعية المسيطرة، فالإيديولوجية يمكن أن تشير إلى الفلسفة الاجتماعية الموجهة لجماعة معينة سواء كان داخل المجتمع أو حزب سياسي⁴، فهو يعتبرها من مكونات الثقافة في كل مجتمع ومن هذه النقطة يظهر ارتباطها بالوسط الاجتماعي في كونها مجموعة أفكار منظمة، تساهم في تشكيل طريقة لرؤية القضايا التي تتعلق بالأمور اليومية.

وفي مقابل هذا التصور نجد المفكر الفرنسي "لوي ألتوسير" (Luis Althusser/1918-1990) يقر على أنها: نسق من التمثيلات التي ترتبط في غالبيتها بالوعي بل تكون الأكثرية منها صورًا والقليل منها تصورات «وإن هذه التمثيلات عبارة عن موضوعات ثقافية تدرك وتقبل وتعاني، فتؤثر على البشر وفق عملية يجهلون مدلولها»⁵، فهو كان له دور كبير في إثراء البنية الفوقية من خلال ترقية إسهامات الطبقات الاجتماعية في إنتاج الأفكار، إذ ينطلق من مسلمة هي أن الإيديولوجية ليس لها تاريخ، وهو بهذا الاعتقاد يكون متفق مع "كارل ماركس"، لأن استيعاب مختلف الطبقات لوجودهم هو السبب الأول في تحديد أشكال وعيهم ومن ثم فكرهم، حيث أن «التصورات والفكر والتعامل الذهني بين البشر تبدو هنا أيضًا على اعتبارها إصدارًا مباشرًا لسلوكهم المادي... فالبشر هم منتجو تصوراتهم وأفكارهم»⁶، إذن فالإيديولوجيا ليست شيئًا زائدًا في التاريخ وإنما هي بنية جوهرية بالنسبة للحياة، أو بتعبير آخر البنية الإيديولوجية هي بنية فوقية تتكون من أجزاء هي تمثيلات الأفراد في وسطهم الاجتماعي الذي يحمل إيديولوجيا ما وبالتالي هم من يعتنقها.

إذن لها علاقة مباشرة بالمجتمع، وبهذا الوصف تحمل مفهومًا سوسولوجيًا، باعتبار أن النظام الفكري لمجتمع ما يشكل نسقًا اجتماعيًا يتمثل في أفعال وممارسات الأفراد، فالإيديولوجية بوجه عام وبالمختصر المفيد هي منظومة متسقة من الأفكار والتصورات والقيم التي تقف على تحديد رؤية كل فرد إلى الطبيعة والمجتمع والإنسان وتوجه سلوكه بقدر ما تحدد كذلك رؤية الجماعة وموقفها، ويعتقد من يتبنى هذا الاتجاه أنها دائما الصواب، فلهذا يدافعون عما يتبادر منهم من رؤى ضنا منهم أنهم يسرون على خطى مستقيمة وصحيحة.

العدم)، فهذا السؤال يمثل منسى الميتافيزيقا لا مفكرها. ينظر: مارتن هايدغر، "مدخل إلى الميتافيزيقا"، تر: عماد نبيل، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2015م، ص 21-22.

³ - عبد الرحمن خليفة، فضل الله إسماعيل، "المدخل في الأيديولوجيا والحضارة"، د.ط، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، مصر، 2006م، ص 33.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه، ص 102.

⁵ - محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، "الإيديولوجيا (دفاتر فلسفية نصوص مختارة)"، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2006م، ص 09.

⁶ - كارل ماركس، فريدريك أنجلز، "الإيديولوجية الألمانية"، تر: فؤاد أيوب، ط1، دار دمشق، بيروت، 1976م، ص 30.

نضيف تصور آخر وهو لـ: "كارل مانهايم" (Karl Mannheim/1893-1947) الذي يرى أن لفظة الإيديولوجيا تحمل معنيين هما:⁷

- 1- المعنى الجزئي: يكون مقصود ضمناً، وذلك عند اتخاذ موقف غير متأكد منه تجاه الأفكار والمعتقدات التي تتبادر من خصم ما، ويمكن اعتبار هذا التصور للإيديولوجيا، أنه أصبح متميز عن مفهوم الكذب، وجزئي لأنه خاص بالفرد الواحد لا الجماعة، ويقوم على تحليل الأفكار وفق المستوى السيكولوجي.
- 2- المعنى الكلي: هو ما يتضح عند الإشارة إلى إيديولوجية عصر من العصور أو طبقة ما أو جماعة، يكون الهدف هو توضيح وتركيب البناء الكلي لعقلية البناءات الثلاثة المذكورة (العصر، الطبقة، الجماعة).

من الواضح أنه رغم اختلاف هذين المفهومين وتميز كل واحد عن الآخر، إلا أنهما يجتمعان في نقطة واحدة وهي الارتداد إلى الذات مهما كانت فرداً أو جماعةً.

ونعود مرة أخرى إلى التعريفات والمحاولات التي يدلي بها بعض الدارسين والباحثين في هذا الصدد، ولعل منها تلك التي تنظر إلى الإيديولوجيا على أنها: «نتاج للسلوك والخبرة الذاتية للفرد أو الجماعة وتبدو في نسق متكامل من الافتراضات الإدراكية والمعارف التي ترشد الناس لممارسة سلوك وفكر محددين بما يحقق لهم الاستقرار والترابط»⁸، إذ يمكن اعتبارها مجموعة من المواقف والأفكار تجاه علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وبالعالم الخارجي، فهي «مجموعة من الأفكار تعيش حياتها المستقلة ولا تخضع إلا لقوانينها الخاصة»⁹، ومن هنا نلمح اختلاف الإيديولوجيات داخل المجتمع الواحد، حيث تختلف الأفكار ووجهات النظر وتعدد من مجتمع لآخر.

على غرار التصورات والمفاهيم الغربية السابقة فيما يخص الإيديولوجيا والتي كانت مختلفة ومتشعبة من ماركسية، سوسيولوجية، أدبية، تاريخية... وغيرها، نجد هناك آراء أخرى ظهرت في الفكر العربي والتي سنتحدث عنها في الصفحات الآتية لهذا المطلب.

3- مصطلح الإيديولوجيا في الفكر العربي:

من بين المفكرين العرب الذين تناولوا هذا المصطلح بالدراسة هو "عبد الله العروي" وذلك في كتابه "مفهوم الإيديولوجيا"، كمحاولة منه لتعيين بعض الاستعمالات الوظيفية والمصطلحية لهذه اللفظة، ونجده يقترح كلمة "أدلوجة" للتعبير عن مدلول الإيديولوجية، فهي على حد قوله: مجموع القيم والأخلاق والتي يسعى حزب ما لتحقيقها اعتباراً منه أن الجزء الذي لا يتبني الأدلوجة يعد حزب انتهازى ويقال عن فلان أنه يأخذ بالأشياء وفق نظرة إيديولوجية، فهذا معناه أنه ينتقي الأفكار ثم يقوم بعملية التأويل التي هدفها إظهار أن اعتقاداته على صواب مما يدفعنا إلى استنتاج خلاصة هي أن مفهوم الأدلوجة يقابله مفهوم الحق¹⁰.

يقسم "عبد الله العروي" الإيديولوجيا إلى ثلاث أنماط هي كالتالي:

- أ- الإيديولوجيا قناع/ نمط سياسي: توظف في المجال السياسي، قناع ذات تفكير وهي للوصول إلى مصالح مرغوب فيها، فهي تتصل بالفضائل السياسي وخاصة الحزبي، لكسب أكبر عدد من الأنصار، وعموماً هي تسعى لتمويه مصالحها، كما لها هدف رئيسي هو الكشف عن الحقائق لمن يتبناها وفي مقابل هذا تخفي نواياها الحقيقية عن خصومها.
- ب- الإيديولوجيا رؤية كونية/ نمط اجتماعي: تتمثل في ذلك النمط الإيديولوجي الذي يحمل رؤية حقيقة للواقع لأنها حاملة لأفق ونظرة موضوعية للواقع، فهي عكس السياسية المتشعبة بالنظرة الذاتية الضيقة، إذ يقول "عبد الله العروي" بأنها: «قناع لمصالح فئوية

⁷ ينظر: كارل مانهايم، "الإيديولوجيا والبيوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)"، تر: محمد رجا عبد الرحمن الديري، ط1، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، 1980م، ص129.

⁸ عبد الرحمن خليفة، فضل الله محمد إسماعيل، "المدخل في الأيديولوجيا والحضارة"، ص26.

⁹ محمد رضا خاكي قرامكي، "الإيديولوجيا"، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، العراق، 2020م، ص13.

¹⁰ ينظر: عبد الله العروي، "مفهوم الإيديولوجيا"، ص9-10.

إذا نظرنا إليها في إطار مجتمعي أي وهي نظرة إلى العالم والكون، إذا نظرنا إليها في إطار التسلسل التاريخي¹¹، فكلما تخلصت الإيديولوجيا من التعصب لنفسها وحملت جملة الانتقادات لذاتها وليس انتقاد غيرها، فهنا ترقى إلى مستوى الرؤية للعالم يتجاوزها الإطار السياسي.

ج- الإيديولوجيا معرفة/علم الظواهر: هي نظام فكري واعي يسعى إلى «معرفة الظواهر الآتية والجزئية في مجال نظرية المعرفة ونظرية الكائن...ويقود هذا الاستعمال حتما إلى النظرية الجدلية»¹²؛ أي هي نمط فكري ومعرفي يهتم بالبحث في ماهية كل من الكون والكائن، فهدفها تخليص الفكر من الأوهام والأحاسيس الذاتية.

يظهر مما سبق أن الإيديولوجيا تعد لفظة إشكالية، وهذا ما جعلها تحوي عدّة مفاهيم ودلالات، فهي «تشكيل هندسي متعدد الوجوه، وكل وجه يصلح أن يكون بابا للدخول إلى هذا الشيء الساحر الذي يدعى المصطلح»¹³، حيث تعد قناع وتشكل واعي وهي لذا فهي مجموعة من القيم والأفكار تتبناها طائفة ما تؤمن بها وتسعى للدفاع عنها، فتؤثر في فكرها متناسية المنطق تمامًا، وقد نلمحها في معنى آخر وذلك حينما تتصل بالرؤية الكونية التي تجعلها أقرب إلى الفلسفة من منطلق أنها تتخذ من الأحكام المطلقة الشاملة سببًا لمعالجة ثلاث أنماط هي: الفرد، الكون والمجتمع، لكون أن مفهوم الإيديولوجيا يتضمن فلسفة لاتصاله بالفكر، كما تعد أيضًا معرفية إذا كان نظام أفكارها موضوعي هادف إلى التحليل العلمي للكون والكائن.

لقد تطور مفهوم الإيديولوجيا في العالم العربي، وهذا التطور زاوله بالضرورة تطور المجتمعات العربية، إذ أصبح مفهومًا يتماشى مع ما هو راهن نظرًا لما عاشه الكائن العربي من ثورات وحروب سياسية، اجتماعية، اقتصادية... إلخ، جعلت منه يبحث عن الحرية.

نجد في الفكر العربي باحث آخر خاض في هذا المجال وهو "نديم البيطار" وذلك في كتابه "الأيديولوجية الانقلابية"، حيث يعرف الإيديولوجية على أنها «أية فلسفة حياة تفسر علاقة الإنسان بالمجتمع والتاريخ تفسيرًا عامًا شاملًا يكشف عن منطلق التاريخ وحركته»¹⁴، فهو لا يهتم بالمنهج لأن هدفه هو الإقناع ولا يحفل على المعقول لكون اهتمامه هو العمل، ولهذا تتساوى لديه ولدى قارنه الإيديولوجية والعقيدة، لأنه لا يوظف مفهوم الأدلوجة بكيفية نقدية، إذ يرى أن النوع المطلوب تزامنا مع الظروف العربية الراهنة هي أدلوجة الرفض.

إنّ المشكلة الأساسية في الوطن العربي هي مشكلة إيديولوجية وكل الإشكالات الأخرى تتفرع منها مثل الأصاله، المعاصرة، الدين، الدولة، الثورة، الاستقلال، العروبة... وغيرها فكلها تعد انعكاسًا وتجسيدًا للانعدام الإيديولوجي والثقافي، وباعتبار أن معالجة معظم الأوضاع يكون عمومًا بالمعرفة، فإنّ أزمة الوطن العربي هي أزمة معرفية إيديولوجية لأنّ العقل هو السبب الوحيد في تبلورها، والمفكرون العرب على علم تام بهذا الوضع، لكنهم رغم ذلك يجعلون الإيديولوجيا تحتل الجزء الكبير من الزمان والمكان وتستغرق العقل والوجدان، وقد كان معظم الذين تبنا هذا المصطلح وروجوا له ذو نزعات تكون إما ماركسية أو قومية أو ليبرالية... إلخ¹⁵.

إذا كانت التعاريف السابقة يشوبها الغموض ويتخللها التعقيد، كان الأفضل النظر إلى المفهوم المختصر والواضح وهو على النحو الآتي: «الإيديولوجيا هي شكل من أشكال الفلسفة السياسية أو الاجتماعية، تظهر فيه العناصر التطبيقية بالأهمية نفسها التي تظهر فيه العناصر النظرية؛ فهي إذن منظومة فكرية تدعو إلى تفسير الدنيا وإلى تغييرها في آن واحد»¹⁶، ويعد هذا المفهوم هو الأنسب والأدق لكونه قال محتوي هذا المصطلح بعبارات شاملة وبدون أي لف ودوران، وهذا طبعًا لا ينفي صحة ومصداقية المفاهيم المقدمة سابقًا كما لا يقلل من أهميتها.

¹¹ - حميد لحمداني، "النقد الروائي والإيديولوجيا"، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1990م، ص18.

¹² - عبد الله العروي، "مفهوم الإيديولوجيا"، ص14.

¹³ - محمد رضا خاكي قرامكي، "الإيديولوجيا"، ص22.

¹⁴ - المرجع السابق، ص152.

¹⁵ - ينظر: تركي الحمد، "دراسات إيديولوجية في الحالة العربية"، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992م، ص81.

¹⁶ - حسين علي، "العلم والإيديولوجيا"، ص106.

مما تقدم يتضح أن الإيديولوجيا تحمل في غالبيتها أربعة معاني: المعنى الأول هي أنها تنبثق من الماضي وتحن إليه، وفي المعنى الثاني تصور الحاضر والأمر الواقع، وفي المعنى الثالث تفصح عن المستقبل، أما في المعنى الرابع فنجدها تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، حيث يتحول الماضي إلى مستقبل معلوم بعد أن كان مجهولاً، وهذه المفاهيم تكون الإيديولوجية مجرد أفكار قوية تتسلط على الأذهان لفترة قد تطول أو تقتصر، فهي عبارة عن أفكار يؤمن بها شخص ما تؤثر على رؤيته لما حوله سواءً كان العالم الاجتماعي أو الإنساني، فقد يكون الاتجاه الإيديولوجي المتبنى مستمد من النظرية السابقة ولكنه يؤثر على الرؤية المستقبلية للفرد.

4- ما بين الإبداع الأدبي والإيديولوجيا:

بعد الحديث عن مفهوم الإيديولوجيا وعن أهم التفسيرات المقترحة من طرف المفكرين والفلاسفة واللغويين في تحديد المسار المفهومي لهذا المصطلح، نأتي الآن للحديث عن العلاقة التي تربط بين الأدب والإيديولوجيا.

إذا كانت الإيديولوجيا هي نظام فكري أو نسق من الأفكار والمعتقدات والمواقف المحددة المتسقة التي يعتنقها مجموعة من البشر وتعدد رؤية العالم أو تفسر ظواهره وترسم من ثم أسلوب لمواجهة الحياة، فإنّ الأدب هو ذلك المجال الفني الذي يجول فيه الخيال أم أنّه تعبير بالكلمة عن موقف كاتبه من العالم، كما أنّه صياغة لغوية لتجربة إنسانية عميقة يحمل دلالات ورموز يبدأ من تناقضات الواقع ثم يعيد تشكيلاتها في صيرورة أدبية، والكاتب أثناء كتابته لنصه الأدبي، يجد نفسه مكبلاً بجملته من العوامل التي تملي عليه طريقة الكتابة كالصراعات الفكرية في مجتمعه والتناقضات الاجتماعية والإيديولوجية في عصره.

لقد قلنا بأنّ الإيديولوجيا هي نتاج فكري، والأدب هو فن لغوي يعبر عن موقف الأديب من الوسط الاجتماعي، فانطلاقاً من هذا الطرح نتساءل طارحين السؤال كالتالي: هل هناك من علاقة تجمع بين الأدب والإيديولوجيا؟ أو بصيغة أخرى ما هي علاقة الأدب بالإيديولوجيا؟

يعد الأدب شكلاً من أشكال الإيديولوجيا وحقلًا من حقولها وعلى ضوء ذلك، وجب علينا تبين هذه العلاقة، انطلاقاً من المقولة القائلة بأنّ الإيديولوجيا هي العمود الفقري ومحور الاتكاء لكل عمل فني أدبي.

لا يمكن فصل الأدب عن الإيديولوجيا، لأنّ الأديب عندما يكتب، فهو يعبر عن مجتمعه وانتماءه السياسي والثقافي، ويدافع عن هذا الانتماء عن طريق الأفكار والتوجهات التي يتبناها، فالإيديولوجيا ترسوا بجناحها على الأدب، فما وافقها يعد أدباً جيداً وما خالفها يعد أدباً رديئاً، فهي تتحكم فيه وتوجهه نحو الوجهة التي ترضاهما، وهو «الأمر الذي يجعل من عملية التوجيه عملية تؤدج كلاً من النص كمستوى لغوي والخطاب كفاعل اجتماعي»¹⁷، لكن هذا لم يمنع من بروز كتابات أدبية ثائرة على القوالب الإيديولوجية والتي يكون دورها هو الإشادة بالحرية والمساواة، حيث «ليس كل إيديولوجيا هي وعي زائف بل إنّ كثيراً من التوجهات الفكرية تعبر عن وعي صادق سليم»¹⁸، وللأسف الشديد هذه الكتابات التي تثور على كل ما هو سلطوي إيديولوجي قليلة مقارنة بالتي تندرج تحت مظلة الإيديولوجيا، لأنّها هي التي تملي عليها فهرس مواضعها.

من هنا يمكن القول أن الكتابة الأدبية لا يمكنها التجرد من الإيديولوجيا، فحضورها ضروري، أما المسافة بينهما فهي تتسع تارة وتضيق تارة أخرى، وكلما ضاقت يزداد التوتر فيفقد الأدب قيمته.

إنّه من غير الممكن أن يغفلوا أي نص أدبي من إيديولوجيا ما كون أنّ «العمل الأدبي كيفية الأعمال مرتبط بشكل بديهي للغاية بسياقه الإيديولوجي وبسياقه الأدبي»¹⁹، فحتى لو اتجه كاتب هذا النص إلى التستر والاختفاء وراء ستار آراءه ومواقفه، فهو يعمل على إقامة الأفكار

¹⁷ عموري السعيد، "الإيديولوجيا/الخطاب/النص(نحو مقارنة مفاهيمية)"، مجلة الأثر، العدد18، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، الجزائر، 2013م، ص148.

¹⁸ عبد العزيز بن علي السديس، "التحيز الإيديولوجي في الفكر والتحليل الاقتصادي الغربي"، د.ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، جامعة الملك سعود، الرياض، 1420هـ، ص10.

¹⁹ تزفيتان تودوروف، "نقد النقد"، تر: سامي سويدان، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، 1996م، ص104.

ورصد مختلف الأبعاد الاجتماعية والنفسية عبر انزياحات بلاغية، أسلوبية وجمالية؛ أي يقوم بإعادة تشكيل وبناء العناصر التي يلتقطها وفق المنظور الإيديولوجي، وهذا لأنَّ المبدع ليس مجرد شخص يجمع ويترصّد الأحداث ثم يرجعها كما أملاها عليه الواقع وكما استقبلها إحساسه، وإنما يعيد رسم تلك الصراعات فينتج الإيديولوجيا التي «تشكل حاجة ضرورية للحياة وعلى الأقل بالنسبة للكثيرين... فكثير من الناس لا يكتفون بالمهام الجزئية التي يوكلها إليهم المجتمع... إنهم يريدون شيئاً آخر ملء وجودهم لإسباغ معنى على حياتهم»²⁰، ونفس الأمر إسقاطاً على الأدباء، فهم الآخرون يبحثون عن شيء يميز حياتهم ومن ثم تميّز أعمالهم وذلك بتبني إيديولوجيا ما تخدم مصالحهم وتجعلهم في مراتب أرقى مما كانوا عليها.

ينبغي على كل أديب أو كاتب أن تكون له وجهة نظر أو موقف معين يعمل به، مما يجعله يحقق انسجاماً بين الأدب الذي يبذل ويكتب بفضلته وبين الإيديولوجية التي بها يتبنى صورة ما، فيدافع عنها لأنَّ «حضور الإيديولوجيا في دنيا الإنسان كمثل حضور الجاذبية في فزياء الطبيعة»²¹، وإنه لمن التهور الاعتقاد أنَّ الإيديولوجية في العمل الأدبي هي تمثيل أمين للإيديولوجيا في العالم المحيط، لأنَّه نادراً ما يكون الكتاب الكبار ممثلين لإيديولوجية زمنهم حيث لديهم غالباً نزعة لعرض أفكارهم وتناقضاتهم و«إيديولوجيا الكاتب تؤثر في رؤيته للأدب ودوره ووظيفته وتنعكس على العمل الأدبي موضوعاً ومضموناً وبناءً»²²، فالأديب ليس عارضاً ألياً للوقائع والأحداث ولا يلتقطها بإحساس خارجي جاف، ولكنها اصطفت بصيغته وامتزجت بذاته لأنَّ نصه ما هو إلا عصاره تفاعل العديد من العوامل التي تشكل إحدى مواقفه الخاصة تجاه العالم، فهو إذن «اختار أن يكتب فهذا يعني أنه اختار بطريقة معينة لا أن يقول بشكل مباشر ولا أن يعني بالضبط ما كان يريد بالطريقة التي كان يأمل أن يقول بها أو يعنيه»²³؛ أي أنَّه لا يكتب من وحي تفكيره وإرادته فحسب وإنما هناك من يؤثر فيه ويدفعه للولوج والغوص في مواضيع ما والانزلال أو تجنب قضايا أخرى، لكون أن الأدب له صلة وطيدة بمصطلح الإيديولوجيا فهذا ما نلمحه في الإنتاج الإبداعي بمختلف أشكاله.

إن الأعمال الأدبية التي تجسد فكرة معينة وتتبنى إيديولوجيا معينة وتضفي قيمة جمالية هي حقا أعمال إبداعية ترقى إلى درجة من المهارة الفنية، لأنَّ الأديب لا يكتب لنفسه بل هو يكتب بوعي من مشكلة اجتماعية تخل توازنه وتذبذب عقله، وهو يهدف من وراء كل كتابة يحزرها إلى أن يتقاسم مع أكبر عدد من القراء تفكيره في حل تلك المشاكل التي حلَّت بمجتمعهم وعصره بوضع الحلول لها وهذا ليس بمفرده بل بالاستعانة بمن حوله، حيث أنَّ «معظم المفكرين لا يستطيعون إنتاج عملهم في عزلة عن الآخرين ولكنهم بحاجة لتبادل الآراء في البحث والنقاش مع أقرانهم لتطوير آرائهم»²⁴، وفي الوجه المقابل لا توحى هذه الفكرة إلى أن كل المفكرين سابقين للاختلاط مع غيرهم، بل هناك فئة منهم يحتفظون بآرائهم لأنفسهم ولا يحتاجون لتوجيهات الغير.

يتضح مما قيل أنفا أنَّ الإيديولوجيا موجودة في الأدب وذلك عبر مستويات مختلفة، إذ لها وجود في الأفكار والمواقف والبيانات الفنية وحتى في تصور الأديب ووعيه، فهي «لازمة للظواهر، ومن دونها لن يتسنى لفكر أن يشق سبيله إلى الفعالية ليصبح كياناً معنوياً مكتمل الحضور»²⁵، ومن هنا يظهر لنا أن عملية الإنتاج الأدبي لا تتم عبثاً أو تلقائياً وإنما يجب عليها أن تقتزن بالوظيفة الإيديولوجية.

يزخر الأدب بقدرات فنية تمكنه من استيعاب مختلف التجارب الإنسانية والتوجهات الإيديولوجية، إذ نجد العمل الأدبي يعيد طرح وصياغة القضايا في شكل جديد وخاص دون أن يحرف الحقيقة أو يطمس الجوهر الأساسي للأحداث والوقائع، ولعل أن السرد هو الذي

²⁰ عبد العزيز بن علي السديس، «التحيز الإيديولوجي في الفكر والتحليل الاقتصادي الغربي»، ص 11.

²¹ محمد رضا خاكي قرامكي، «الإيديولوجيا»، ص 21.

²² شكري عزيز الماضي، «في نظرية الأدب»، ط 1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1993 م، ص 126.

²³ إدوارد سعيد، «العالم والنص والناقد»، تر: عبد الكريم محفوض، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000 م، ص 110.

²⁴ المرجع نفسه، ص 96.

²⁵ محمد رضا خاكي قرامكي، «الإيديولوجيا»، ص 08.

يقدم «نفسه كأكثر أنشطة الإنسان قابلية للمقاربة الإيديولوجية عبر مستويات الخطابات والنصوص السردية»²⁶، لأنه المجال الخصب للدراسة وتناول مثل هذه الموضوعات التي تصب في قالب واحد وهو قالب إيديولوجي بحت.

لكي نفهم العلاقة القائمة بين الأدب والإيديولوجيا، سوف نستعين بمقاربة "عمار بلحسن" في كتابه "الأدب والإيديولوجيا"، الذي أقر فيه على أنّ كشف هذه العلاقة أمر مقترن أصلاً بمناقشة هذا التصور وفق ثلاث مقترحات هي:

1- النص الأدبي عبارة عن تأليف ينظم الإيديولوجيا: بمعنى أنّه يمدّها ببنية وشكل لإنتاج دلالات جديدة حيث لكل نص مضمون وشكل خاص به.

2- يقوم النص الأدبي بتحويل الإيديولوجيا وتصورها: فالنص يقوم بكشف المستور وفضح كاتبه وهذا طبعاً يتحقق عندما تكون الإيديولوجية التي يتبناها صريحة بعيدة عن المغالطات.

3- يتضمن العمل الأدبي عناصر معرفة الواقع: فهو تمثيل جمالي وفني من شخصه، علاقاته، ظواهره... إلخ، وهذه المعرفة تختلف عن المعرفة العلمية نظراً للاختلاف القائم بين العناصر الثلاثة التالية: (العلم، الأدب والواقع).²⁷

بعد كل هذه الآراء يتبين أن هناك علاقة وطيدة بين الأدب والإيديولوجيا، بغض النظر عن أن كلا الطرفين يخضعان لمقولة التطور حسب نسق معين وكلاهما يتفاعل مع الواقع بطريقة معينة، لكن رغم ذلك إلا أن هذه العلاقة «ليست علاقة بسيطة بل مركبة ومتداخلة وبالغة التعقيد»²⁸، والدليل على هذا هو وجود بعض الأعمال الأدبية التي تتناقض مع الإيديولوجيا بكل أنساقها وصورها وهذه الاستثناءات إطلاقاً لا تعترض في أنّ الإيديولوجية التي يتبناها الأديب تؤثر حتماً على فكره وأعماله لكونه طرفاً في هذه الثنائية.

إذن الإيديولوجيا ليست نظارة توضع على العين وإتمّما هي العين نفسها، كما أنها ليست عباءة تلبس بل هي الجلد في حد ذاته، وهي بهذا التصور بنية كاملة تتغلغل في جميع المواقع وأشكال السلوك وكذا صيغ التعبير، فهذا ما جعلها تمتد بصلة للأدب، وقد يكون التفكير في علاقة الأدب بالإيديولوجيا مقبولاً في نطاق ما قيل أعلاه، لكن تتضح معالم هذه العلاقة بشكل عميق عندما نخترق باب الرواية.

5- الإيديولوجيا والنص الروائي:

لقد عرفت علاقة الرواية بالإيديولوجيا جدلاً كبيراً تعود إرهاباته الأولى إلى نشأة النص الروائي وعلاقته بالواقع الاجتماعي وكذا التاريخي، بوصفه خطاب أدبي وبنية فنية جمالية تتضمن صورة الفرد والمجتمع ورؤية الأديب إلى العالم وموقفه من التاريخ، وما دام هناك وجود لعلاقة بين الأدب والإيديولوجيا فلا من شك لتمحور علاقة أخرى تربط الرواية بالإيديولوجيا لكونها أكثر الأجناس الأدبية انفتاحاً ورصداً للواقع، ففي النوع الأدبي المناسب لتصوير المجتمعات وعكس أفكار أفرادها وتجسيد الصراعات والإيديولوجيات والتناقضات المذهبية السائدة.

وهذا يدور صلب الحديث في هذا المطلب حول علاقة النص الروائي بالإيديولوجيا وذلك وفق مجالين: الأول الإيديولوجيا في الرواية والثاني الرواية كإيديولوجيا، ومن هنا يتبلور السؤال القائل عما إذا كانت الرواية هي جزء من الإيديولوجيا؟ أم أنها إيديولوجيا في حد ذاتها؟ للإجابة على الإشكال المطروح، نقول بأن الرواية تقوم في هذه الحالة بمهمة مزدوجة، بمعنى أنها توظف الإيديولوجيات من ناحية وتقتحم عالم الصراع الإيديولوجي من ناحية أخرى، وهذا ما سنقف عليه في دراستنا هذه.

لقد تمكنت الرواية منذ نشأتها الأولى من تصوير التناقضات الاجتماعية والواقعية والإفصاح عن خبايا الأزمات الكبرى إثر تطور حركات المجتمع، وقد كشف النقد ومنهم الماركسيون عن جدلية العلاقة بين الرواية والواقع في عكس الإيديولوجيات السائدة، كما دعا "جورج لوك (George Locke/1870-1937) إلى ضرورة التفريق بين إيديولوجية الكاتب بوصفه إنساناً وإيديولوجية كتاباته التي لا تخضع

²⁶- عموري السعيد، "الإيديولوجيا/الخطاب/النص (نحو مقاربة مفاهيمية)"، ص 150.

²⁷- ينظر: عمار بلحسن، "الأدب والإيديولوجيا"، ط 2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991م، ص 53-54.

- شكري عزيز الماضي، "في نظرية الأدب"، ص 129.²⁸

إلا لمنطق الكتابة ونسج الدلالات والمضامين، فالنص الروائي سواء اختلفت إيديولوجيته أم لم تختلف فإنه يبقى نصًا يغترف من الواقع وينطلق من منطلقات إستراتيجية تمتن قاعدته، فلا يمكن لنص أن يعلو على آخر إلا قياسًا بقدرته كاتبه على حسن انتقاء التقنيات الجمالية والبلاغية الخاصة والتي تجعله يتميز عن ما يطلق عليه بالخطاب الإيديولوجي المباشر الذي نخاطب به السياسة في أغلب الأحيان²⁹.

إن الأنساق الإيديولوجية حسب ورودها في الأعمال الروائية تتناقض فيما بينها، بوصفها قيم فكرية اجتماعية تعبر عن وقائع ضمن أطر نصية مفصحة بذلك عن علاقات تضادية تناقضية مع التوجهات الموظفة في سياقها، فالإيديولوجيا «حين تدخل النص لا تتمتع بالقوة نفسها التي لها في الواقع، فهي محاصرة بوجود بعضها إلى جانب بعض... لأن الكاتب لا يُضمّن وجوده بالضرورة إيديولوجيته الخاصة ضمن إحدى الإيديولوجيات المعروضة في النص فقد تبقى إيديولوجيته خفية»³⁰، حيث أنها تتحرك في سرية تامة بين الإيديولوجيات المطروحة في النص، بمعنى أنه هناك إمكانية لوجود مجموعة من الأنساق الإيديولوجية في نسق واحد، كما أن إيديولوجية الخطاب الروائي لا تتجسد من خلال كل من الوضع السياسي أو الاجتماعي فحسب، فإثما بإمكانها التبلور في قضايا ومواقف أخرى وقد يغلب الطابع السلي على تلك المواقف والأحداث وحتى على الشخصيات، لأنه تتحدد طبيعة الإيديولوجيا بالدلالة العامة للخطاب الروائي ولوظيفته الموضوعية المؤثرة والطاغية³¹، ضف إلى ذلك أن إيديولوجية الكاتب في كثير من الأحيان لا من ضرورة لعرضها، فقد نجدها مبطنّة في المتن أو مشار إليها لكن بطريقة غير مباشرة، فليس من هبّ ودبّ يستخلصها، لكن هذا يضعها في أمر الواقع وذلك ببروز صراعات بينها وبين الإيديولوجيات الأخرى والتي وردت علانية.

عندما تتوصل الرواية إلى اختراق سماء الإيديولوجية إلى سماء الأدب الواسعة، تكون قد حققت قولها الإيديولوجي بخطاب أدبي، بمعنى أن الأقوال والغايات الكلامية السياسية تصاغ في قوالب أدبية، وكلما سجن الروائي رؤيته برؤية السياسي وحبست الرواية ذاتها تحت مظلة السياسية، نتج عن ذلك فقدان الرواية لدورها السياسي وكذا الأدبي، بحيث تصبح غير قادرة على تنفيذ مهامها المكلفة به في كلا المجالين، ومنه نقول بأن الوعي الإيديولوجي يختلف عن الوعي الأدبي والروائي وإن كان الأول جزء من الثاني، وكثيرة هي النصوص الروائية والأدبية التي تختفي وراء ستار الشعار الإيديولوجي المباشر لإخفاء نقصها الجمالي وعجز كاتبها³².

إن هذه العلاقة القائمة بين هذين الطرفين تفسح عن حقيقة وهي أن الطرف الأول الذي هو الإيديولوجيا، يعد مكونا أساسيا من مكونات الطرف الثاني الذي هو النص الروائي، وهذا لكون الأول يخترق الثاني فيغدو مادته الخام، ومنه نقول أنه لا وجود لنص ولا عمل أدبي في معزل عن الإيديولوجيا سواء ظاهرة أو مضمرة.

6-تمركز الإيديولوجيا في الرواية:

يكاد لا يخلو نص روائي من إيديولوجيا ما تقوم بمهام وهو ترصد الصراع القائم في المجتمع، مهما كان فكري أو سياسي أو اجتماعي، حيث أن عناصر المتن الروائي من زمان ومكان وحبكة وشخصيات وحوار وسرد...إلخ، فكلها حاملة للإيديولوجيا، حيث أن «الخطاب الروائي والتعبير الأدبي عامة، بل التعبير الإنساني عامة، هو إيديولوجي بالضرورة»³³، لأن الرواية لا بد لها أن تقوم على رؤية إيديولوجية «فليس غريبا أن يلتزم الكاتب بإيديولوجيا معينة لأن ذلك جزء من عملية تحقيق الذات»³⁴، وهذه الرؤية نلمحها من خلال العناصر التي يوظفها في نصه.

²⁹- ينظر: علال سنقوقة، "المتخيل والسلطة"، ص151.

³⁰- حميد الحمداني، "النقد الروائي والإيديولوجيا"، ص26-27.

³¹- ينظر: محمود أمين العالم وآخرون، "الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجيا"، ط1، دار الحوار، سوريا، 1986م، ص20.

³²- ينظر: أمين الزاوي، "صورة المثقف في الرواية المغربية - المفهوم والممارسة"، د.ط، دار راجعي للنشر والطباعة، الجزائر، 2009م، ص559.

- محمود أمين العالم وآخرون، "الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجيا"، ص16.³³

³⁴- علال سنقوقة، "المتخيل والسلطة"، ص86.

تدخل الإيديولوجيات إلى الرواية كعناصر تضيفي جمالا على النص، فهي غير قائمة على التصنيف ولا هي محكم فيها ولا محكوم عليها وفي هذا تقول السميائية والناقدة الفرنسية "جوليا كريستيفا" (Julia Kristeva/1941): «إنّ النص المتعدد الأصوات ليس له إيديولوجية واحدة، هي الإيديولوجية المشكلة الحاملة للشكل»³⁵؛ إذ تصبح بمثابة العناصر الغنية للمادة الروائية وأدوات يوظفها الكاتب في صياغة النص الذي هو على استيعاب كبير لمختلف الإيديولوجيات المثمرة في النصوص أو الموجودة في الواقع، ونجد "كريستيفا" «تلجأ إلى استعمال مصطلح الإيديولوجيا ونعني به الوظيفة التناسية التي يمكننا قراءتها وهي تتمظهر ماديا على مختلف مستويات بنية كل نص والتي تمتد خلال صيرورتها مانحة إياه كل مطبقاتها التاريخية والاجتماعية»³⁶، فإنه بتعدد الإيديولوجيات وتتصادمها يتشكل محتوى النص الروائي، لكونها تلك المواقف والرؤى والأفكار التي تزخر بها الرواية، كما أنّها هي تلك الطريقة الخاصة التي وظفت بها، وما ينتج عنها من اختلاف في المواقف، فيؤدي حتما إلى الصدام والصراع في نهاية الحلقة.

تعد الإيديولوجية بمثابة محتوى للنص الروائي، تكشف في غالبيتها عن الموقف السلبي الذي يحاول من خلاله الروائي إقناع الجمهور عبر الشخصيات التي يوظفها، فهم عبارة عن رسومات يحركها وفق مذهبه وانتماه الفكري، لأنه تطلق الإيديولوجيا بمعنيين: الأول يكون مذموم ويعد عبارة عن آراء الخصم الظاهرية التي تستر على الحقيقة الجوهرية والتي تدين الخصم إذا ما تم الكشف عنها، وأما المعنى الثاني فهو مقبول خاص بعصر أو طبقة ما يتلخص في خصائص ذهنية تركيبية³⁷، وهذا ما جعل من الرواية وعاء حامل للإيديولوجيا، حيث يتم التصنيف الإيديولوجي للرواية انطلاقا من متنها «أي من مجموعة البيانات الإيديولوجية التي تشكلها وليس من الخارج المادي وإن بدا هذا التناظر بديها بين الداخل والخارج»³⁸، وهذا كله يعني أن الروائي قد يتدخل في نصه وذلك من خلال شخصوه ومواقفهم إلى درجة إلباسهم ملابس إيديولوجية ثقيلة الوزن، وقد تظهر ذات مقاسات كبيرة مقارنة بأجسادهم كما أنها لا تناسب نمط هذه الشخصيات العادية، فالهدف هنا هو تجسيد موقفه ورؤيته عبر الشخصيات التي قام عليها عمله الروائي.

يتضح لنا أن الإيديولوجيا في الرواية يكون لها وجود حين يسعى الكاتب الروائي من خلال نصه إلى تجسيد وإظهار الأفكار والمعتقدات التي يتبناها، وذلك عبر العناصر التي يوظفها في نصه، لكن هذا لا يتم بطريقة مباشرة بل تكون هذه الرؤى مطوية بين ثنايا المضمون، أي أن «إيديولوجية الخطاب الروائي إيديولوجية محايدة باطنية نابعة من بنيته الداخلية من ناحية وهي كذلك إيديولوجية وظيفية تتحقق بمدى ودلالة تأثيره الموضوعي الخارجي من ناحية أخرى»³⁹، لأن الإيديولوجيا المباشرة حين تعبر باب الأدب أو الفن بشتى أنواعه بما فيه الرواية يهرب الإبداع من نافذته، لكن هذا لن يجعل من عمل أدبي ما عملا فارغا لا يشتمل على محتوى ولا يحمل في طياته رسالة أو مشكلة، بل هو يحمل همما من هموم الأفراد والإنسانية أجمعين، حيث يستلهم وينهب الفن والجمال ويوظفها لخدمة الأحداث والشخصيات وبقية العناصر الأخرى.

إذن يظهر من تفاعل الإيديولوجيات في الرواية موقف الكاتب الإيديولوجي مهما كان توجهه سياسيا أو ثقافيا أو معرفيا وكذا رؤيته للعالم، فهذا ما يجعل من النص الروائي ذات الطابع الإيديولوجي يندرج ضمن حقل من الحقول المعرفية والثقافية الشاملة.

7- الرواية كإيديولوجيا:

في هذا العنصر لن نتحدث عن الإيديولوجيا في الرواية وإنما عن الرواية كإيديولوجيا، لأنه عندما ينتهي الصراع بين الإيديولوجيا في الرواية تبدأ معالم إيديولوجيا الرواية في الظهور، إذ تظهر شمسها في الأفق، لأنه بمجرد زوال الصراعات تبرز معالم الأعمال الروائية بكل وضوح.

³⁵ حميد الحمداني، "النقد الروائي والإيديولوجيا"، ص32.

³⁶ سعيد يقطين، "انفتاح النص الروائي"، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001م، ص20.

³⁷ ينظر: حسين علي، "العلم والإيديولوجيا"، ص104.

³⁸ علال سنقوقة، "المنتخيل والسلطة"، ص89.

- محمود أمين العالم وآخرون، "الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجيا"، ص16.³⁹

لقد قلنا فيما مضى أن ما يجسده الروائي في نصه عبر شخصه فيما يتعلق بالاختلاف في آرائهم وتوجهاتهم، فهذا يشكل إيديولوجيا في الرواية، ففي مقابل هذا الرأي نجد أن انتهاء هذا الصراع والتناقض بينهم هو من يجعل الرواية تغدو كإيديولوجيا في حد ذاتها، ومنه نقول أن الرواية كإيديولوجيا تعني بكل بساطة موقف الكاتب وليس موقف الأبطال كل منهم على حدة، وفي خلاف ذلك نجد "مخائيل باختين" (Mikhail Bakhtine/1895-1975) يحصر الإيديولوجيا داخل الرواية معتمدا على فكرة أن الأديب حيادي، ويعلل موقفه بتعدد وباشتغال الرواية على أساليب عديدة وشخص كثيرة لأنّ الرواية في الواقع تتعدد أساليبها، فكل شخصية وكل هيئة تمثل فيها، لها صوتها الخاص وموقفها الخاص ولغتها الخاصة وأخيراً إيديولوجيتها الخاصة وهكذا فلا حاجة تدعو إلى مقابلة الرواية بالواقع لأنّه حاضر فيها⁴⁰.

لتبيان إيديولوجية الرواية ورسم معالمها وجب الغوص في ثنايا الصراع وتحديد طبيعته مع النظر في مختلف التوجهات الفكرية التي قامت عليها بنية النص الروائي، ضف إلى ذلك القيام بإحصاء وتحديد النتائج المترتبة عن هذه الصراعات مهما كانت، لأنّ تحديد هذه النتائج يقضي بالضرورة تحديد موقف الكاتب منها، فهو يبرز موقفه النهائي من مواقف عناصره الروائية وخاصة الأبطال التي تعد نماذج أفقية للنموذج العمودي الذي هو النص، وهذا لا يوحى بشيء وإنما يوحى فقط إلى ضرورة الوقوف على إيديولوجية الكاتب التي هي مضمر في النص، فمهما سعى الروائي إلى تمويه صوته، فإنّه يميل في نهاية المطاف إلى التستر وإخفاء رؤيته الإيديولوجية، وهذا ما جعله يلجأ إلى انتقاء الوسائل الفنية لعمله لكي لا يبدو خطابه الإيديولوجي مكشوفاً⁴¹.

إن مقارنة القيم الإيديولوجية داخل الرواية تثير عدّة إشكاليات منها السؤال عما إذا كانت هذه المقاربة متصلة برصد الواقع والبحث عن ذاته في النصّ الروائي، إذ يصبح بذلك النص عبارة عن آلة ثابتة لا تحرك ساكن ولا تغير في وجه الواقع وكأنه يتم رصد الوسط اليومي بحذافيره، لأنّه قبل انجاز العمل الأدبي والعمل الروائي على نحو الخاص لا يمكن الحديث عن الإيديولوجيا، وذلك لا يعني أن الكاتب «يفتقر إلى النضج السياسي وإلى الوعي الإيديولوجي وإلى الرؤية الجدلية وإلى الشمولية لأنّه لا يستطيع تفكيك الواقع وإعادة بنائه»⁴²، فالعمل الروائي مهما كان نوعه أو شكله لا ينتج إيديولوجيا بذاته، وإنما يساهم في صيرورتها إما نحو الذبوع والانتشار وإما نحو التهميش والانطفاء.

-خاتمة-

في ختام ورقتنا البحثية نقول باختصار:

- بأنّ الرواية كإيديولوجيا هي موقف وتصوير الكاتب، والذي لا يتحدد إلا بعد الانتهاء من القراءة الشاملة والدقيقة للرواية ككل.

- ولعل ما ينبغي الإشارة إليه كنتيجة منطقية لما أسلفنا الحديث فيه هو أنّ النصّ الروائي يتضمن مجموعة من الإيديولوجيات المتعارضة، لكن من غير المعقول اعتبارها على أنّها إيديولوجية الروائي لكونها تعبر عن رأيه وإحدى مذاهبه، لأنّه ربما الغرض من عرض هذه الإيديولوجيات مجهول لا يعرفه أحد إلا الكاتب الذي كتب ذلك النصّ وليس الهدف منها ما نفكر نحن فيه أو ما فكر فيه قارئ آخر.

- وجب التمييز بين الإيديولوجيا في الرواية والرواية كإيديولوجيا بحيث أنّ: الإيديولوجيا في الرواية هي شديدة الاتصال بصراع الأبطال داخل المتنّ الروائي، لكن تبقى الرواية كإيديولوجيا تعبيراً عن تصورات الكاتب عبر الإيديولوجيات المتصارعة.

- إنّ ما يمكن قوله عامة هو أنّه إذا كانت الإيديولوجيا هي اليقين والإيمان بفكرة ما، فإنّ الإبداع الروائي هو اللابيقين، فحين تصل الرواية إلى بلوغ درجة من الحقيقة والإجابة الجاهزة وتتخلّى عن فريضة الشك والسؤال، فهنا تفقد فنيّتها وسحرها.

⁴⁰- ينظر: حميد الحمداني، "النصّ الروائي والإيديولوجيا"، ص35.

⁴¹- ينظر: نبيل بوالليو، "الإيديولوجي في الرواية/ رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي-نموذجاً"، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد8، جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة، ص90.

⁴²- الطبيب بودريالة، السعيد جاب الله، "الواقعية في الأدب"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد7، 2005م، ص05.

قائمة المصادر والمراجع:

- أمين الزاوي، "صورة المثقف في الرواية المغاربية - الفهم والممارسة -"، د.ط، دار راجعي للنشر والطباعة، الجزائر، 2009م.
- إدوارد سعيد، "العالم والنص والناقد"، تر: عبد الكريم محفوظ، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000م.
- ابن منظور، "لسان العرب"، ج2، د.ط، دار صادر، بيروت، مادة (دلج)، حرف الجيم، فصل الدال، 1999م.
- تركي الحمد، "دراسات إيديولوجية في الحالة العربية"، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1992
- حميد لحمداني، "النقد الروائي والإيديولوجيا"، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1990م، ص18.
- شكري عزيز الماضي، "في نظرية الأدب"، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1993م.
- سعيد يقطين، "انفتاح النص الروائي"، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2001م.
- الطيب بودريال، السعيد جاب الله، "الواقعية في الأدب"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد7، 2005م.
- كارل ماركس، فريدريك أنجلز، "الإيديولوجية الألمانية"، تر: فؤاد أيوب، ط1، دار دمشق، بيروت، 1976م، ص30.
- كارل مانهايم، "الإيديولوجيا واليوتوبيا (مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة)"، تر: محمد رجا عبد الرحمن الديري، ط1، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، 1980م.
- ترفيتان تودوروف، "نقد النقد"، تر: سامي سويدان، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، 1996م.
- فراس البيطار، "الموسوعة السياسية والعسكرية"، ج1، د.ط، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، 2003م.
- عبد الله العروي: "مفهوم الإيديولوجيا"، ط8، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2012م.
- عبد الرحمن خليفة، فضل الله إسماعيل، "المدخل في الأيديولوجيا والحضارة"، د.ط، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، مصر، 2006م.
- عبد العزيز بن علي السديس "التحيز الإيديولوجي في الفكر والتحليل الاقتصادي الغربي"، د.ط، مكتبة الملك فهد الوطنية، جامعة الملك سعود، الرياض، 1420هـ.
- عمار بلحسن، "الأدب والإيديولوجيا"، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991م.
- عموري السعيد، "الإيديولوجيا/الخطاب/النص (نحو مقاربة مفاهيمية)"، مجلة الأثر، العدد18، جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية، الجزائر، 2013م.
- محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، "الإيديولوجيا (دفاتر فلسفية نصوص مختارة)"، ط2، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2006م.
- محمد رضا خاكي قرامكي، "الإيديولوجيا"، ط1، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، العراق، 2020م.
- محمود أمين العالم وآخرون، "الرواية العربية بين الواقع والإيديولوجيا"، ط1، دار الحوار، سوريا، 1986م.
- مجمع اللغة العربية، "المعجم الوسيط"، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، 2004م، ص292.
- أبو نصر إسماعيل الجوهري، "معجم الصحاح"، تح: محمد محمد تامر، ج1، د.ط، دار الحديث، القاهرة، 2009م، حرف الدال.
- نبيل بوالليو، "الإيديولوجي في الرواية/رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي-نموذجاً"، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد8، جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة.